مجلة علوم التربية

دورية مغربية متخصصة

- من بيداغوجيا الكفايات إلى بيداغوجيا الإدماج
- بيداغوجيا النجاح: قراءة في المنطلقات والأهداف
- اللغة والأدب: أية علاقة؟
- المراهقة والتحولات الأسرية في الوسط القروي
- القراءة المنهجية للنص النظري: إشكالات وتساؤلات
- فشل الإصلاحات التعليمية بالمغرب: الأسباب والحلول

العدد الواحد والأربعون- سبتمبر 2009

اللاتوجيهية وحرية التعلم

د.الحسين زاهدي
باحث في علوم التربية بمركز الإمام الغزالي
لتكوين المعلمين والمعلمات بأكادير

تشكل البيداغوجيا اللاتوجيهية إطارا هاما للعمل التربوي لما تتيحه من إمكانيات جيدة لتحقيق التلقائية والإبداعية، بسبب ما تدعو إليه من استقلالية للمتعلم، وملامسة لحاجياته النفسية، ومراعاة لخصائصه نموه،وقواه الداخلية، ومن إلحاح على جعله يتحمل مسؤوليته الكاملة في سيرورة التعلم دون كبح أو قمع.

وفي هذا المقال سنعمل بحول الله تعالى على تمحيص مفهوم اللاتوجيهية واستخلاص بعض المبادئ التطبيقية التي يمكن أن تفيد المشتغلين بالتربية المدرسية،ثم نختم ببعض الخلاصات والمناقشات حول دور كل من المعلم والمتعلم في الرؤيا اللاتوجيهية.

1 – حول المفهوم

إن ما يهمنا من اللاتوجيهية، ليس هو تاريخها، ولا روادها ومؤسسوها،بقدر ما هو مبادؤها ومرتكزاتها، وجوانبها التطبيقية، أي ما يمكن أن تقدمه كإطار بيداغوجي لتعليم و تعلم اللغات. لهذا كله، ولما يلف مفهوم «اللاتوجيهية» من غموض يؤثر سلبا على تطبيقات المدرسين لها داخل فصول تعليم وتعلم اللغات بدا لنا أنه من الضروري تمحيص المفهوم حتى يتسنى لنا استخلاص ما يمكن أن يفيد معلم اللغة، ويساعده على تحقيق أهدافه التربوية بفعالية.

ويمكن إجمال اللبس الذي اعترى هذا المفهوم حسب Encyclopédie sciences de l'éducation[1]

في ثلاثة مواضع هي :

ا ـ اللا توجيهية معادلة ل« دعه يفعل» Laisser faire

أي لنكون أقل توجيهية ينبغي أن نقلل تدخلاتنا أثناء العملية التعلمية بأكبر قدر ممكن .

ب ـ اللاتوجيهية هي اهتمام زائد ومتميز بالحياة الوجدانية للأفراد.

ج ـ اللاتوجيهية تقنية إجرائية أو موقف أو إيديولوجية،

تلك هي المعاني التي ترد بها اللاتوجيهية ؛ وكلها تبتعد وتقترب قليلا أو كثيرا من جوهرها الحقيقي الذي من أجله كانت أول الأمر،و الواقع أن الأمر لا يتعلق بعدد أو حجم تدخلات المنشط أو المعلم بقدر ما يتعلق بطبيعتها،

وفي هذا الإطار يميز Max Pagés[2] بين نوعين من التدخلات :

ـ التدخلات المشكلة Structurantes، وهي عبارة عن مشاركة ديداكتيكية، نصائح، وتقويم.....الخ، تحاول حمل المخاطب على منهج للفعل.

ـ التدخلات المعلمة Informantes، وهي التي تقدم للمخا طب معلومات عن منهجه الخاص حين اشتغاله أولا بأول، ذلك أنها تقيم متوالية للمفعول الرجعي يستطيع الشخص نفسه عن طريقها إدراك منهجه و تحديده.

وإذن فاللاتوجيهية هي ضرب من ضروب قيادة الجماعة يستخدم التدخلات المعلمة دون غيرها.

إذا كانت اللاتوجيهية قد أعادت الاعتبار للبعد الوجداني للإنسان وذلك بإدخالها

معيش الأشخاص و الجماعات في حقل البيداغوجيا بعدما أقصاه و تجاهله التعليم التقليدي، فإن ذلك لا يعني أبدا بأي معنى من المعاني أنها تستبعد النشاط الفكري للمرء، بل بالعكس تماما فإنها تطمح إلى تحريره من القيود و الأغلال التي كبلته وأثقلته بها الطرق التقليدية للتربية والتعليم.

وإذا كانت اللاتوجيهية ترد بمعنى تطبيق قيادة الجماعات بتقنية للمعاشرة هيئت في الأصل من قبل كارل روجرزCarl Rogers في حقل العلاج النفسي، في مقابل قيادة توجيهية تتدخل في تحديد الموضوعات، والأهداف، والطرق،أو قيادة تعاونية يلتحم فيها المنشط بالفعل الإنتاجي للجماعة، فإن القيادة اللاتوجيهية الحقة ترتبط أساسا بتيسير التبادلات عن طريق تدخلات المنشط المعلمة بالمعنى الذي سبقت الإشارة إليه . وإن كانت اللا توجيهية في الحقيقة بل حرية تصرفه داخل الوضعية المعينة وطريقته في العيش ومراقبة العلاقة مع الجماعة، هذا الذي ينبغي أن ينأى به عن التكلف و التصنع.

إنه لا مجال في هذا المستوى للمواقف البيداغوجية المتكلفة، إن روح اللاتوجيهية كما يؤكد الكثيرون تكمن في محتواها ألعلائقي.

إن اهتمامها ينصب بالأساس على الوضعية بدل المحتوى، وعلى تحليل شروط التعلم بدل الإرسال، وعلى نقد العلاقات بين الأشخاص أولا ثم المؤسسة ثانيا.

وفي الجملة « فاللاتوجيهية هي رفض لتشييئ الفرد»[3]

2_مبادئ تطبيقية

إذا كانت اللاتوجيهية قد أولت للفرد اهتماما متميزا أخذ بعين الاعتبار مختلف أبعاد شخصيته الوجدانية و الفكرية منذ أن ظهرت و تبلورت معالمها و مبادؤها في حقل العلاج النفسي مع كارل روجرز، فإن التربويين قد استخلصوا منها مبادئ هامة جدا في مجال البيداغوجيا، مستلهمين جوهرها الذي من أجله كانت منذ بداية أمرها. وقد لخصوه في عبارة واحدة هي حرية التعلم، التي تفرعت عنها أشكال تطبيقية أجملها أصحاب Pour[4] un nouvel enseignement des langues في الآتي:

أ_ استقلالية المتعلم.

ب_ حفز المتعلم.

ج_ تقويم المتعلم.

وإن كنا نرى أن استقلالية المتعلم تحتوي بوضوح على العنصرين الآخرين، كما سيتضح بعد تفصيل القول في كل واحد منها على حدة.

استقلالية المتعلم

إن أهم ما يميز البيداغوجيا ذات المنطلقات اللاتوجيهية،عن البيداغوجيات التقليدية المتمركزة حول المحتوى، هو ما تمنحه للمتعلم من أولوية تراعي مشاكله العاطفية، ودوافعه، وتوقفاته، ودفاعاته، وقدراته،ومبرراته الخاصة للتعلم أو عدمه،فاللاتوجيهية كما سبقت الإشارة لذلك أثناء تمحيص مفهومها ترفض التدخل، والتحكم القسري في تحديد المواضيع، والأهداف، وطرق وكيفيات التعلم.

إن التعلم الحقيقي إذن هو الذي يقرب المتعلم من تجاربه ويساعده على تعميقها، ويراعي اهتماماته، ومشاريعه الشخصية، وليس تعلما مفروضا من سلطة خارجية تنفرد بأهدافها ولا ترى سواها؛ فحسب كارل روجرز نفسه «فإن التعلم الأكثر ضرورة من الناحية الاجتماعية في عالم اليوم هو تعلم سيرورة التعلم . وهو أيضا أن يتعلم المتعلم البقاء منفتحا دائما على تجربته الخاصة، وأن يدمج في ذاته سيرورة التغيير نفسها»[5]، وهذا ما يعبر عنه ب» تعلم التعلم»، أو تعلم كيف تتعلم، وهذا ما يفتح الأبواب الواسعة أمام التعلم الذاتي المتمحور حول المتعلم ونموه الذاتي، حيث يكتفي المعلم باتخاذ موقف تيسير تعلم الشخص موضوع التكوين.

حفز المتعلم

تكشف كتابات كارل روجرز في هذا الموضوع عن إيمانه العميق بأن الكائن الإنساني تكمن فيه طبيعيا قوة عظيمة، ورغبة عارمة في» التعلم، وفي الاكتشاف، وفي أن يوسع معارفه، وحقل تجربته»[6] يمكن أن يستفيد منها، وأن تشكل حوافزه الكافية و الطبيعية للتعلم إذا لم توصد الأبواب في وجهها وتغتل في مهدها.

لذلك يؤكد كارل روجرز أن لا شيء يغضبه «أكثر من سماع قول : ينبغي أن يحفز التلميذ. فالكائن الإنساني الشاب محفوز طبيعيا بدرجة عالية ... وكل عناصر محيطه تشكل بالنسبة إليه تحديات حقيقية، عليه أن يتصدى لها، وهو متلهف ليكتشف، ومتلهف ليعرف، ومتلهف لحل المشاكل.»[7] وأن» ما يحزن ويضني في أغلب الأنظمة التربوية هو أن الطفل عندما يقضي عددا من السنوات داخل المدرسة يكبت عنده هذا الحفز الموجود فيه بالقوة.[8]

إن أفضل طريقة للحفاظ على هذا الحفز الطبيعي للمتعلم هو الاقتراب جدا من عالمه وتجاربه، ورغباته، وحاجاته ؛ ولا شك أنه سيكون لذلك الأثر البالغ على شيئين أساسين ومهمين هما:

- درجة التعلم: أي جودة التعلم.
- زمن التعلم، ونقصد به هنا بالضبط سرعة التعلم.

ويضرب لذلك Carl Rogers المثل بطالبين سجلا في درس الإحصاء بإحدى الجامعات، الأول يرغب في توظيف مكتسباته منه في بحث متعلق بإتمام عمله، وتقدمه في مجاله المهني، والثاني لا يريد منه سوى أن ينتقل إلى المستوى الأعلى ويحافظ على تسجيله بالكلية.

ويخلص إلى أن الأول سيتمكن من استيعاب مادة الدرس وظيفيا، وربما في وقت أقصر من ذلك المخصص لها رسميا، في حين أن الآخر لن تتعدى استفادته تطبيق مكتسباته من أجل الانتقال إلى المستوى الأعلى.

وفيما يخص زمن التعلم يسوق لنا Carl Rogers مثال الوقت الذي يمكن للمراهق أن يتعلم فيه قيادة السيارة.

تقويم المتعلم

يحتل التقويم الذاتي في المنظور الروجرزي موقعا مركزيا مقابل التقويم الخارجي الذي عادة ما يلجأ إلى تضخيم الخطأ ومحاربته سواء تعلق بالمعارف العلمية، أو استراتيجيات، وطرق المتعلم في التعلم والاكتساب.

أما التقويم الذاتي، فالذي ينهض به هوا لمتعلم نفسه، ويكون مفعوله الرجعي ذا طبيعة تعاونية تيسيرية، أي تساعد على إزالة العوائق، وتفجير الطاقات الكامنة في المتعلم.

ويتوقف هذا الصنف من التقويم على توافرا لمتعلم على نوع من الاستقلال الفكري، والثقة بالنفس، وقوة الشخصية، والإبداعية، مع اعتبار كل ما يأتي من نقد من مصادر خارجة عن ذاته ثانويا.

3 - خلاصات و مناقشات

إن المبادئ، والجوانب التطبيقية للاتوجيهة التي تم بسطها في النقطة السابقة، تطرح أسئلة جوهرية و تسلط

الضوء على تعليم، وتعلم اللغات . فاستقلالية المتعلم، وتحرره كما يراها روجرز، تجد أصولها في معطيات العلاج النفسي، ومبرراتها في الحياة المعاصرة كذلك، لما تتطلبه من ثقة في النفس وتحرر في الفكر. وكذلك الأمر بالنسبة لمبدأ التقويم الذاتي للمتعلم.

وهذا يطرح السؤال حول دور كل من المعلم و المتعلم داخل هذا المنظور البيداغوجي.

فليتحرر المتعلم ينبغي أن يفك ارتباطاته بالمعلم،أي ألا يقع تحت سلطته توجيهاته التحكمية التي تعطل نموه الداخلي وتطور قواه الكامنة .

والمعلم لا يمكن ألا يكون توجيهيا إلا إذا كف عن التعليم ذاته، بحكم أن التعليم يعني في أوضح معانيه وأكثرها شيوعا نقل شيء ما. وهذا يقتضي من بين ما يقتضيه اختيار وانتقاء هذا المنقول (المحتوى)، ونماذج النقل(الطرق البيداغوجية) وهذا يعني التدخل في اختيار المحتويات وتحديد طرق التعلم و التعليم، وهو نوع بارز من أنواع التدخلات المشكلة.

وإذا كان إرسال المعارف يستلزم استقبالا، فإن هذا إما أن يحكم عليه بالجودة أو الرداءة، وغالبا ما يتكلف المعلم بإصدار هذه الأحكام في شكل تقويم خارجي، لأنه هو المسؤول

عن تنفيذ المقررات وتطبيق طرق ذلك التنفيذ.

هكذا إذن يتضح أن فعل(عَلم) في غاية التعقيد لما يتضمنه من تناقض إذا نظر إليه من خلال الرؤيا اللاتوجيهية التي يعتبر كثير من التربويين الذين يصدرون عنها بشكل من الأشكال التعليم عقبة أمام التعلم.

ولحل هذا التناقض و إزالة تلك العقبة لابد من تجاوز فعل التعليم إلى فعل التعلم بكل ما يعنيه من تمحور حول المتعلم.

الهوامش

1- Gilles Ferky, Ency/Sciences de l'éducation, la pratique du travail en groupe, une expérience de formation des enseignants, V10, pp.143, 144, 145,146

2- Ibid p 142.

3- Gilbert DalGalian. Simmounnelietaud , Francois weis 1981,Pour un nouvel enseignement des langues ,CLE INTERNATIONAL ,PARIS,p7.

4- Ibid,p7

5Sciences de l'éducation , Bordas pédagogie, v6,Carl Rogers,Liberté pour apprendre, 1986,p162.

6- Ibid ,p130.

7- Ibid,130

8- Ibid, p131